

وظيفة الاستعارة في تحقيق الانزياح الدلالي _ نماذج مختارة من حكم نهج البلاغة _

The metaphor function to achieve semantic displacement. Selected modeels from the rule of Nahdj Al-Balaghah

1عبد المطلب عبد الحجي *

جامعة الدكتور يحي فارس المدية/ مخبر الدراسات المصطلحية والمعجمية، abdelhai.abdelmoutaleb@univ-medea.dz

2عواطف قاسمي الحسني

جامعة الدكتور يحي فارس المدية/ مخبر الدراسات المصطلحية والمعجمية، kacimiawatif@Yahoo.fr

تاريخ الارسال 2022/05/18 تاريخ القبول 2022/09/06 تاريخ النشر 2022/09/23

ملخص:

تُعَدُّ هذه الدراسة محاولةً لاستقراء وظيفة الاستعارة في تحقيق الانزياح الدلالي، متخذةً من حكم الإمام علي _ كرم الله وجهه _ مركزاً لجانبها التطبيقي، مسلطةً الضوء على مفهوم الانزياح الدلالي وتمثله في الفكر اللغوي العربي قديمه وحديثه، وكذا بعده مصطلحاً وارداً من الثقافة الغربية بوجهٍ أخص. والانزياح بعمومه محور الدراسات الأسلوبية قائم أساساً على فكرة التعدي والخرق للسنن والقواعد المعيارية تحقيقاً للجمالية والمفاجأة معاً، ولما كان _ الانزياح _ متحققاً في التركيب والدلالة، وكان ارتكازنا على هذه الجبهة البحث للحديث عن الاستعارة كونها الآلية الأكثر تحقيقاً للانزياحية؛ فكانت مُحْفِيَةً ومُجْلِيَةً للدلالة في الوقت ذاته، فهي بذاتِها أداة فعالة في فك مغاليق الخطاب واستجلاء خباياه، خصوصاً وأنَّ النظرة الحديثة لها أضفت إليها صبغةً فكريةً ونأت بها من كونها صورةً بياثيةً هدفها تجميل الخطاب وتحسينه، إلى عدّها أداةً للمعرفة.

الكلمات المفتاحية: الانزياح، الانزياح الدلالي، الاستعارة، النظرية التفاعلية.

Abstract:

This study is an attempt to extrapolate the function of metaphor in achieving semantic displacement, taking it from the rule of Imam Ali _may God bless him_ based on its applied aspect, shedding light on the concept of semantic displacement and its representation ancient and modern arabic linguistic thought, As well as as a term coming from Western culture in particular.

Shift in general is the focus of stylistic studies based mainly on the idea of transgression and violation of the norms and standards in order to achieve both aesthetics and surprise, and since the _shift_ was achieved in the structure and semantics, and our reliance on this was the research trend to talk about the metaphor as it is the most accomplished mechanism; It was hidden and evident at the same time, so it is an effective tool in deciphering discourse and clarifying its secrets, especially since the modern view of it has added an intellectual color to it and brought it from being a graphic image aimed at beautifying and improving discourse, to counting it as a knowledge tool.

Keywords: Shift, semantic displacement, metaphor, interactive theory.

1. مقدمة:

إنَّ الاستعارةَ مسلَّكٌ لانحرافِ اللَّغَةِ عن المعيارِ وسببٌ في تحوُّلها عن المسار، فتتعرَّضُ بإشاحة اللّثام عنها مانحةً إيَّاهَا حياةً جديدةً، بل وولادةً متجدَّدةً تمخَّضت من داخلها، إذ أنَّها لا تضيفُ ألفاظاً جديدةً لمعجمها، وإنَّما تستثمرُ المعطى الموجود وتبعثُ فيه روحاً جديدةً وكأنَّها في عمليةٍ بعثٍ دائمٍ، وما كان هذا إلا بُغيةَ الوصولِ إلى غرائبيَّةِ الصَّوغِ والتَّوسُّعِ في عجائبيَّةِ النَّسجِ، سالكةً نهجَ انزياحٍ دلاليٍّ يرومُ جعلها - الاستعارة - الأساسَ والرَّكيزةَ لتحقيقه.

وتحقيق ذلك في النصوص العلوية ينزل تلك المنزلة، حيث كانت الحكم المختارة هي موضوعُ البحث في «وظيفة الاستعارة في تحقيق الانزياح الدلالي»، هذا الذي تأسس انطلاقاً من إشكاليَّةٍ مفادها:

— كيف تسهم الاستعارة في تحقيق الانزياح الدلالي؟

— وكيف تجسّد ذلك في حكم الإمام علي - كرم الله وجهه -؟

وتهدف هاته الدراسة إلى تبيان أنَّ الخطاب العلوي بدرجةٍ أعلى خطابٌ استعاريٌّ يستهدف في غاياته السَّامية الإقناعَ والتأثير بشقّي الوسائل، وما الاستعارة بوظيفتها الانزياحية إلا وسيلةً من وسائل بلوغ هذا المرمى المنشود. ولما فعلت فعلها المنعطف والمنحرف باللّغة أنتجت بذلك خطابات مفارقةً لما تكرر من التّماذج، بل وذهبت إلى أبعد من ذلك حين عادت باللّغة إلى براءة تكوينها فهي في الأصل استعارية التّشكيل*، وهذا ما يعكس كون الخطاب العلوي يتميّز بالاستعارية.

اعتمدنا في بحثنا هذا المنهج الوصفي التحليلي، برز الوصفي منه في تتبّع ظاهرة الانزياح الدلالي في الفكرين العربي والغربي، وكذا في رصد مفهوم الاستعارة وزوايا النّظر إليها قديماً وحديثاً، أمّا عن التّحليلي فكان منهجنا في الكشف عن الكيفية التي حقّقت بها الاستعارة انزياحاً دلاليّاً في حكم الإمام علي - كرم الله وجهه - شرحاً، تأويلاً، تفسيراً وتحليلاً.

2. مفهوم الانزياح:

يرجع لفظ "الانزياح" في المعجمات العربيّة إلى مادة (ز ي ح) و«الرَّاءُ والياءُ والحاءُ أصلٌ واحدٌ، وهو زوال الشيء وتنحّيه، يُقال: زاح الشيء، يزيعُ: إذا ذهبَ وقد أزحت عِلَّتُهُ فزاحت وهي تزيعُ.»¹ وتأثيل* الجذر (ز ي ح) يرده "ابن فارس" (395هـ) إلى الثَّنَائِي (زح) الذي قال عنه: «الرَّاءُ والحاءُ يَدُلُّ على البُعد، يُقال زُحِحَ عن كذا، أي بُوعِد، قال الله تعالى: «فَمَنْ زُحِجَ عَنِ النَّارِ.»² أي بُوعِد»³.

وبالتّالي فإنَّ الانزياح لغةً هو مصدرٌ للفعل "انزاح" المصاغ على وزن "انفعال" للدلالة على المطاوعة، فلنزاح الشيء "انزياحاً" انتقل بعيداً بانقيادٍ وتحكُّمٍ إلى أن زال، ومنه فإنَّ المعنى المنزاح هو المعنى المنتقل من دلالتِهِ الموضوعية له في أصل اللّغة إلى دلالةٍ نائيةٍ عنها منقادٍ بالسياق المتحكِّم في إنتاجها.

1.2 الانزياح في الفكر اللغوي العربي القديم:

إذا كان لفظ الانزياح من حيث كونه مصطلحاً أسلوبياً يُعدّ حديث التّشأّة، فإنّ الظاهرة التي يدلّ عليها ليست خاصّة بالدراسات الحديثة سلوكاً وتفكيراً؛ لأنّ مفهومه متداول في التراث العربي. فلو تبنّينا فيه لوجدنا بذوره منتشرة في قدرٍ وفيرٍ من الآراء والإشارات التي يمكن اتّخاذها مؤشراً دالاً على حضور فكرة الانزياح عند العرب، خصوصاً أنّ لغتهم مناط البلاغة والبيان ولا يتأتّى لها هذا في مستواها الفنيّ إلّا عن طريق الانزياح والخروج عمّا هو مألوف.

فكان الانزياح مفهوماً موجوداً يدلّ على خروج الكلمة من وظيفتها الأولى ومعناها الأوّل إلى معنى آخر يتوافق والسّياق المذكورة فيه، فكان يُعدّ اتّساعاً نحوياً في فكر "ابن جني" (392هـ) بحيث لم يربطه بالصّورة الشعريّة وإنّما بالفعل فقال «اعلم أنّ الفعل إذا كان بمعنى فعلٍ آخر، وكان أحدهما يتعدّى بحرفٍ والآخر بالآخر، فإنّ العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيداناً بأنّ هذا الفعل في معنى ذلك الآخر.»⁴ كما أنّ "ابن جني" قد استعمل لفظاً (يعدل) دلالةً على الانتقال من معنى لآخر، وهذا في سياق حديثه عن الحقيقة والجواز قائلاً: «إنّما يقع الجواز ويُعدل إليه عن الحقيقة لمعانٍ ثلاثة وهي الاتّساع والتّشبيه والتّوكيد.»⁵

ولعلّ ما جاء به النقاد والبلاغيون وبخاصّة "عبد القاهر الجرجاني" (471هـ) من جماليات في الأسلوب هي إشارة كافية تُنبّه لكلّ ما هو خارج عن المألوف.

وفي هذا الشّأن يشير "الجرجاني" إلى أنّ «الكلام على ضربين: ضربٌ أنت تقصّد فيه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وضربٌ آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وإنّما بدلالة اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثمّ تجدُ لذلك دلالةً ثانيةً تصل بها إلى الغرض ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتّمثيل.»⁶ يتّضح من هذا القول التّفريق بين الكلام العادي، وهو الكلام الخاضع لنظام اللغة وقواعدها وكلّ لفظٍ فيه تشير إلى دلالتها المتعارف عليها، والكلام الذي يحدث فيه عدولٌ وانحرافٌ عن هذا النظام وهو الكلام الأسلوبى الفنيّ. ومن خلال مبحث المطابقة الذي أقامه النّحاة واللغويون يظهر "الالتفات" خاصيّةً تعبيريةً تميّز بطاقتها الإيحائية من حيث أنّ بناءه يعتمد العدول؛ فهو عند البلاغيين العدل «من أسلوبٍ في الكلام إلى أسلوبٍ آخرٍ مخالفٍ للأوّل.»⁷

ومن هذا كلّهُ يمكن الاستنتاج أنّ المفهوم الذي دار عليه مصطلح الانزياح عند القدامى هو خروج اللفظة من معناها المعجمي إلى معانٍ تُفهم من خلال السّياق الذي تُوضع فيه، وقد عبّروا عن هذا الإجراء بمصطلحاتٍ تشاركه دلالة الخروج عن المعيار اللغوي منها «الجواز، النّقل، الانتقال، التّحريف، التّصرف، التّصريف، الرجوع، الالتفات، العدول مخالفة مقتضى الظّاهر، شجاعه العربيّة، نقض العادة.... وغيرها.»⁸ وكلّها مصطلحاتٌ تلتفّ حول بُعدٍ مفهومي واحدٍ هو الإقبال على الكلام بجرأة أو الإتيان بالجديد المخالف للسّابق المعدول عنه.

2.2 الانزياح في الدرس اللساني الحديث:

إذا تحدثنا عن ظاهرة الانزياح في الدراسات اللسانية الحديثة، يجدر بنا التطرّف إلى الدراسات الأسلوبية التي اهتمت بهذه الظاهرة؛ ويكون ذلك بالحديث عن محورين:

المحور الأول: يتعلّق بالدراسات اللسانية التي انتجها العلماء الغربيون، كون مصطلح "الانزياح" قد تحدّث معاملة واتّضحت عندهم.

المحور الثاني: ما يتعلّق بالدراسات اللسانية عند الباحثين العرب ومدى تأثرهم بالدرس الغربي.

فمن الدارسين المحدثين الغربيين الذين وقفوا على مفهوم الانزياح "جون كوهن" (Jean Cohen) (1919م/1994م) الذي أفرد للموضوع كتاباً وسمه (بنية اللغة الشعرية) فقد اعتقد أنّ الانزياح هو «وحده الذي يزوّد الشعرية بموضوعها الحقيقي»⁹ والمقصود بالشعرية تلك الخصيصة التي تنماز من خلالها الأعمال الأدبية من التصوّر العامية من حيث التراكيب والدلالات، ومن ثمّ فقد شخّص اللغة الشعرية بعدها انحرافاً عن الكلام وهو ما يعكس مفهوم الانزياح اللغوي، لأنّ لغة الأعمال والنصوص الأدبية عنده هي انزياح عن معيار هو قانون اللغة، وكل صورة إمّا هي خرق لمبدأ من مبادئها.

كما تحدّث "تودوروف" (T. Todorov) (1939م/2017م) عن الانزياح ووسمه بـ "خرق السنن" أو "اللحن" فهو ما أورده في مفهومه للانزياح على أنّه «لحنٌ مبرّر»¹⁰ وبالتالي ففكره الانزياح عنده هي تجاوز اللغة والتراكيب إلى إبراز دلالات وإيحاءات أكبر؛ إذ لو انحصر الانزياح في جانبه اللغوي لما وُجد أصلاً.

ولما كان تحديد الأسلوب الفني بتحديد مدى انزياحية الكاتب في تراكيبه ودلالاته المعبرة عن انفعالاته عرّف "ريفاتير" (M. Riffaterre) (1924م/2006م) الأسلوب أساساً أنّه انزياح عن النمط التعبيري المتواضع عليه؛ فيضبط بذلك مفهوم الانزياح بعزله عن ذلك المعيار قائلاً إنّ «الانزياح يكون خرقاً للقواعد ولجوءاً إلى ما ندر من الصيغ حيناً آخر»¹¹ وهو تحت هذا المفهوم آليه الخروج عن سلطة اللغة والدخول في مملكة حرية الكلام وإبداعيته.

اتّضح لدينا بما عرضناه من مفاهيم للانزياح أنّه يدلّ على قدرة المبدع على انتهاك واختراق المتناول المؤلف سواء كان اختراقاً صوتياً، صرفياً، نحوياً، معجمياً، دلالياً ومن ثمّ يحقّق بهذا الخرق انحرافاً بالنسبة للمعيار المتواضع عليه بما يتناسب مع السياق الأسلوبي.

من هنا نجد أنّ العرب المحدثين قد صوّبوا مفهومهم للانزياح في مجرى ما تحدّث عنه العلماء الغربيين، فهذا "محمد عبد المطلب" نظر إليه على أنّه «انحرافُ الكلام عن شقّه المثالي»¹² وهو المفهوم نفسه الذي عبّر عنه "نور الدين السّد" بقوله «الانزياحُ انحرافُ الكلام عن نسقه المألوف»¹³ ومما استقرئ من دراساتٍ حديثةٍ يتضح أنّ مصطلح الانزياح التقى مع مصطلحاتٍ عديدةٍ شاع استعمالها منها «الانحرافُ، الإخلال، الانتهاك، التجاوزُ المخالفُ، خرقُ السننِ،.. وغير ذلك»¹⁴.

3.2 الانزياح الدلالي:

ينقسم الانزياح إلى أقسامٍ عديدةٍ، وكلّ قسمٍ له دوره في ترقية المستوى الدلالي والبعد الإيحائي للنص، وتتبع التّفريعات التي وقف عندها علماء الأسلوبية توصّلنا إلى أنّه مهما تعدّدت أنواع الانزياح فإنّها تنضوي تحت نوعين رئيسيين، وذلك أنّ الانزياح إمّا حادثٌ في اللفظ فيكون انزياحاً تركيبياً، وإمّا حادثٌ في المعنى فيكون انزياحاً دلالياً.

—درجة الصّفر في الكتابة— عبارةٌ أطلقها "رولان بارث" (Roland Barthes) (1915م/1980م) على «الخطاب الذي تدلّ فيه كلّ كلمةٍ على ما وضعت له في أصل اللّغة»¹⁵، غير أنّ لغة الانزياح ليس لها حدّ إلّا أن يقوم المتكلّم بتحطيم العلاقات بين المكونات اللّغوية في التّركيب مرحلةً أولىً ومن ثمّ كسر حاجز الفهم السّطحي لدلالة هذه المكونات وذلك من خلال عمليّات التّأويل، التّحليل والتّفسير وبالتالي لا يحدث الانزياح في الدّرجة الصّفرية لا كتابةً ولا فهمًا، من هنا كان الانزياح الدلالي¹⁶، ونقصد به الانتقال من المعنى المعجمي للفظة إلى معنى يتعدّاه حسب السّياق أو كما عبّر عنه "جون كوهن" الانتقال «من المعنى المفهومي إلى المعنى الانفعالي»¹⁷؛ وهذا الانتقال يحصل عندما «يتعادل المعنيان أو إذا كانا لا يختلفان من جهة العموم والخصوص كما في حالة الانتقال من المحل إلى الحال، أو من السّبب إلى المسبّب أو من العلامة الدّالة إلى الشّيء المدلول عليه... أو العكس»¹⁸؛ فالانزياح الدلالي لا يُراد به إبدال أحد المعنيين بالآخر (المعجمي بالسياقي) بقدر ما يُراد به عمليّة التّفاعل بين هذين المعنيين ذلك لأنّ المعنى الأساسي فيه لا يختفي وإنّما يتراجع إلى خطّ خلفي وراء المعنى السياقي وهكذا تقوم بين المعنيين علاقةٌ تفاعلٍ وتمايهٍ تبرز الانزياح الدلالي¹⁹.

ومّا هو جدّير بالذكر في هذا المقام أنّ النّقاد والبلاغيين القدامى كانت لهم إشاراتٌ مبكّرةٌ تُعدّ بذوراً للبحث في الانزياح الدلالي، ومن هؤلاء "عبد القاهر الجرجاني" الذي قسّم المعنى إلى ضربين: معنى ومعنى المعنى؛ فالضرب الأوّل هو القول على سبيل الحقيقة حيث يتقيّد صاحب الخطاب بالمعنى والدّلالة المعجميّة؛ أي تفسيرُ ألفاظ اللّغة بعضها ببعض، مثل أن يُقال الشّرجبُ إنّهُ الطّويل، وقد سمّي "الجرجاني" هذا الضّربُ تفسيراً²⁰. ولا يكون للتّفسير إلّا دلالةٌ واحدةٌ هي دلالة اللفظ، ولذلك يُقال إنّ معنى الشّرجب هو معنى الطّويل بعينه، أي حسب "الجرجاني" «المعنى المفهوم في ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة»²¹ فأما الضّرب الثاني فهو

القول على سبيل المجاز، حيث يخرج الكلام إلى معانٍ جديدةٍ غير تلك التي يوجها الظاهرُ وهي معانٍ يعقلها السامع من المعنى الظاهر على سبيل الاستدلال، أي حسب تعبير "الجرجاني" "معنى المعنى" أي «أن تعقل من اللفظ معنى ثم يُفْضَى بك المعنى إلى معنى آخر».²²

ومن هنا يمكننا القول إنّ فكرة "الجرجاني" لا تخرج عما اصطُح عليه حديثاً بالانزياح الدلالي، ذلك أنّ معنى المعنى يقوم على الاستدلال من المعنى الأول على المعنى الثاني، وهذا هو جوهرُ نظرية الانزياح الدلالي التي يُمثّل فيها المعنى الأول: إشعاعاً دلاليّاً للمعنى الثاني، فالمتكلم إذا قصد توصيل المعنى بطريقةً ملتويةً هذا لأنّ لها مزيةً وفضلاً عن توصيله بطريقةً مباشرةً وهذا ما يؤكّد عليه "الجرجاني" بقوله «من المركز في الطّباع والرّاسخ في غرائز العقول، أنّه متى أُريد الدّلالة على معنى، فثُرك أن يصرّح به ويذكر باللفظ الذي هو له في اللّغة، وعُمد على معنى آخر فأشير به إليه، وجُعِل دليلاً عليه، كان للكلام بذلك حُسْنٌ ومزيّةٌ لا يكون إذا لم يصنع ذلك ودُكر بلفظه صريحاً».²³

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أنّ الوصول إلى المعنى الثاني المنزاح إليه يقتضي التوقّف عند المعنى الأول - المنزاح منه - مرحلياً، ثمّ تكون عملية اختراقه والانزياح عنه إلى ما وراءه من معانٍ ودلالاتٍ ومن ثمّ يفقد اللفظ شفافيته الدلالية، ويكتسب ضرباً من الدلالة ولهذا فإنّ المتلقي الذي لا يبذل نوعاً من الجهد العقلي في الاستدلال على المعنى الثاني وربطه بسياقاته، لن يقف أبداً على المعنى المقصود، فالمتكلم يقوم بتشفير قصديته، والمتلقي مهمّته فك هذا التشفير، ولكي يتحقّق هذا وذاك لابدّ أن يكون للمعنى الأول علاقةً تربطه بالثاني وتجيّز هذا الانتقال في حدود السياق، وهنا تبرّر قيمة الانزياح الدلالي، إذ أنّه يمثّل عمليةً واعيةً تقوم على رصد المعنى بحيثياته.

إنّ الانزياح الدلالي ناتجٌ أساساً عن اختلال علاقات الإسناد ليس نحوياً إنّما دلاليّاً ذلك أنّ الألفاظ لما كان أصلُ وضعها دالاً على معنى معيّن وبه التصق، وكان لكلّ دالٍ مدلوله المعجمي، جاء الانزياح ليحدث زعزعةً في هذا النظام وينتقل بالألفاظ من عالم السطحيات الظاهرة إلى عالم أعمق منه، فلا تُسند بذلك المعاني إلى ما وُضعت له أو لما هو ظاهرٌ في سطحيّة التراكيب، إنّما تُسند إلى دلالاتٍ أخرى ضمن علاقاتٍ وقرائن سمحت لهذا الانتقال أن يكون سلساً منسجماً بانسجام المعاني الواردة فيه، فكان الانزياح الدلالي حاصلاً بمجموع آليات لغويّة بلاغيّة تتمثّل في: التشبيه الاستعارة، الكناية، المجاز، ولما كانت الاستعارة عماداً لتحقيق الانزياح الدلالي سلّطنا الضوء على وظيفتها في ذلك بحثاً ودراسةً.

4.2 ضوابط الانزياح:

لتحديد ضوابط الانزياح نتساءل: ما المعيار الذي يُقاس به الانزياح؟ تختلفُ الإجابة عن هذا السؤال باختلاف وجهات النظر إليه، وهذا ما جعل النقاد يختلفون في تحديد أشكاله أيضاً، وسنحاول في هذا المقام أن نعرض بعض المعايير التي يُقاس على أساسها الانزياح.

فإذا كان الانزياح انحرافاً عن النظام اللغوي في مفهومه العام، فإنّ هذا النظام يُعدّ معياراً يتحدّد به الانزياح، ونقصد به هنا «جملة قواعد اللغة التي تتمّ بها الكتابة حيث تصطدم ظواهر الاستعمال اللغوي في الكلام بمستوى اللغة الثابت، ويصبح الأسلوب حينئذٍ هو العدوان على نظام اللغة».²⁴

فالمبدع بالنسبة إلى هذا المعيار هو الذي يمتلك القدرة على الخروج ومخالفة النظام اللغوي، وهو الذي يقدر على تجاوز قوانين اللغة، فيعبّر عمّا يريد من خلال انزياحه عن هذا المعيار، وبالتالي يكون الانزياح منوطاً بالتأثير في السامع.

يُقاس الانزياح أحياناً «باعتبار مستوى الكلام مثل إمكانية التعبير المحايد فهو الذي تُستمدّ منه القاعدة».²⁵ لكن لا ينبغي أن نغفل أنّ ظواهر الكلام اللغوية مرتبطة دائماً بالمتكلم والسياق الذي ترد فيه، ممّا يجعلها غير محايدة على الإطلاق.

كما يُقاس الانزياح من خلال قاعدة الاستخدام اللغوي؛ أي من خلال القواعد النحوية والبلاغية السائدة في عصر المبدع فيصبح «علم النحو علمٌ معياري، مصدرُ الجمال في النحو هو الدقة في الالتزام بقواعد المعيارية، في حين أنّ الأدب: شعراً ونثرٌ تنعدم فيه القابلية المعيارية... ويكون مصدر الجمال فيه هو الخروج عن القواعد والقوالب الثابتة».²⁶ يُحوصل مفهوم القاعدة من كل هذا بأنها نموذجٌ مثاليٌّ لغويٌّ حاضرٌ في أذهان الجماعة اللغوية وهو نموذجٌ تنحو تطبيقه دون أن تظفر إلى ذلك نهائياً في الواقع اللغوي أي «أنّ الانزياح هنا يحدّد على أنّه خروجٌ على القاعدة التي تتفق عليها الجماعة، وكان استعمالها شائعاً وسط هذه الجماعة نموذجاً».²⁷

هناك من يحدّد الانزياح على أساس السياق، ففي أسلوبية "ريفاتير" يلعب السياق دور المعيار، ولا يقصدُ "ريفاتير" بالسياق السياق اللفظي وإنما السياق الأسلوبي فهو الذي يختزل تعددية المعنى ويضيف إحياءات غريبة للكلمة فالسياق الأسلوبي «هو نموذجٌ لسانيٌّ مقطوعٌ بواسطة عنصرٍ غير متوقع».²⁸ هذا العنصرُ يُحدث تصدّعاً مع العنصر اللغوي المتواضع عليه، ولن يُنتج أي أثرٍ دون اجتماع هذين العنصرين في متواليّة واحدة، وبذلك فإنّ السياق يلاحق القارئ إلى حدٍّ كبيرٍ مغطّياً كل متواليات الخطاب وهذا ما يُحيل إلى إمكانية الإجراء الأسلوبي لتوليد تأثيراتٍ متعددة.²⁹

ومنه فإن اعتماد السياق معياراً يتحدّد من خلاله الانزياح يُعدّ نوعاً من وضع الدلالات في مواضعها المقصودة وفهم معاني الانحراف الحاصل في الأسلوب.

3. الاستعارة

الاستعارة في اللغة مشتقة من الجذر الثلاثي (ع و ر) الذي أورد ابن فارس في مقاييسه قائلاً: «العين والواو والراء أصلان: أحدهما يدلّ على تداول الشيء (...). تعاوّر القوم فلاناً واعتووه ضرباً، إذا تعاوّنوا، فكلّما كفّ واحد ضرب آخر. قال الخليل: والتعاوّر عامٌّ في كلّ شيء. ويقال تعاوّرت الرياح رسماً حتّى عفتها، أي تواظبت عليه»³⁰ ولفظ استعارة مأخوذة من العارية «أي ما تداولوه بينهم، وقد أعزّ وأعار منه وعاور إياه... استعار الشيء واستعاره منه طالباً منه أن يُعيّره إياه»³¹ ومنه كان المدلول اللغوي يحيل إلى استلاف شيءٍ لحاجة ما، وهنا يكون التداول حاصلاً.

1.3 الاستعارة في الفكر اللغوي العربي القديم:

إذا ما تتبعنا مفهوم الاستعارة في الاصطلاح وجب الارتكاز ابتداءً على مفهومها في الفكر اللغوي العربي القديم وبخاصّة البلاغي منه؛ فالاستعارة عند عبد القاهر الجرجاني ماثلة في قوله: «واعلم أنّ الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفاً، تدلّ الشواهد على أنّه اختصّ به حين وضع، ثمّ يستعمل الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل وينقله نقلاً غير لازم، فيكون هناك كالعارية»³²

وهو ما يفسّره في كتابه دلائل الإعجاز حين رأى في الاستعارة «أنك تُثبت بها معنى لا يعرف السامع ذلك المعنى من اللفظ لكنّه يعرفه من معنى اللفظ»³³ وبالتالي فهي استعمال اللفظ في غير ما اصطُح عليه في أصل المواضع، ولا بدّ من العودة إلى معنى آخر من أجل الحصول على معنى متماسك لهذا اللفظ فهناك تكامل في بناء الألفاظ وتفاعل بينها ليتّم استخلاص المعاني، فاللغة تنتج المدلولات التي لم تكن موجودة قبلاً من خلال تفاعل الدوال في سياقاتها الموضوعية فيها.

وتجسّد انزياحية الاستعارة في المعاني والدلالات لتكون حاضرة كاشفة عن قوّتها في قول "الجرجاني" «... فإنك لترى بها الجماد حياً ناطقاً، والأعجم فصيحاً، والأجسام الخرس مبيّنة، والمعاني الخفية بادية جليّة (...). إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنّها قد جُسّمت حتى رأتها العيون، وإن شئت لطّفت الأوصاف الجسمانيّة حتى تعود روحانيّة لا تنالها إلّا الظنون... وهذه إشارات وتلويحات في بدائعها»³⁴

اعتمد "السكاكي" (626هـ) كلام "الجرجاني" في تفصيله للاستعارة فقدّم لها تعريفاً دقيقاً كافياً شافياً فقال: «هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به دالاً على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخصّ المشبه به»³⁵ هذا التعريف يبيّن انقسام الاستعارة إلى نوعين رئيسين، الاستعارة

التصريحية وفيها يحذف المشبه ويصرح بالمشبه به، والاستعارة المكنية وفيها يحذف المشبه به ونكتي عنه بصفة من صفاته. وبذا صارت الاستعارة أكثر بلاغة من التشبيه لأن المشبه والمشبه به اتحدتا حتى ألا شيئاً واحداً.

وهاهو "القزويني" (682هـ) يذهب المذهب نفسه، ما انفرد به هو تبيين الاستعارة التحقيقية في تعريفه حيث أرجعها إلى أصلها الذي هو التشبيه، ولعله اعتمد فكرة "السكاكي" في ذلك فقال: «الاستعارة هي ما كانت علاقته تشبيه معناه بما وضع له، وقد تقيّد بالتحقيقية: لتحقيق معناها حساً أو عقلاً أي التي تتناول أمراً معلوماً يمكن أن يُنص عليه ويُشار إليه إشارة حسية أو عقلية فيقال إنّ اللفظ نُقل من مسمّاه الأصلي، فحمل اسماً له على سبيل الإعارة للمبالغة في التشبيه».³⁶

ويرى "السكاكي" أن الاستعارة تقوم على دعامتين أساسيتين هما: التجاوز الدلالي — وهو ما اصطُح عليه حديثاً بالانزياح الدلالي — والأخرى التشابه، ويرى أن أحدهما لا يحقق بمفرده صورة استعارية قائلاً: «إن المجاز أعني الاستعارة من حيث إنّها من فروع التشبيه... لا تتحقّق بمجرد حصول الانتقال من الملزوم إلى اللازم، بل لابدّ فيها من تقدّمه تشبيه شيء بذلك الملزوم له في لازم له».³⁷

وهنا تلتقي النظرة الحديثة مع نظرة "السكاكي" في التأكيد على جانبي التجاوز الدلالي والانتقال إلى دلالة أخرى، وجانب المشابهة التي تربط بين المعنيين. فالقيمة الأسلوبية للاستعارة ووظيفتها الرئيسة تكمن في تحقّق هذين الأمرين؛ تنزاح بك من دلالة لأخرى مع الإبقاء على أوجه الشبه بين الدلالتين لتعميق الفهم.

2.3 الاستعارة في الدرس اللساني الحديث:

أبانت الدّراسات البلاغية الحديثة أنّ الاستعارة مسألة معرفيّة تصوّريّة؛ وهذا مردّه الرّحم المفاهيمي والإجرائي الذي استثمره أصحاب البلاغة الجديدة في مجال التّداوليّة والسّيميائيّة وتحليل الخطاب. وهو ما كوّن للاستعارة نظراً واسعاً تجاوزت المنظور البلاغيّ التقليديّ، فاكتملت بذلك وظيفة المعرفة، وهو ما أكّد عليه "أمبرتو إيكو" (Umberto Eco) (1932م/ 2016م) قائلاً: «لا تهمّنا الاستعارة باعتبارها زخرفاً، لأنّها لو كانت زخرفاً فقط (...) لكان بالإمكان تماماً تفسيرها بعبارات نظريّة الدّلالة الصّريحة، بل إنّها تهمّنا باعتبارها أداة المعرفة الإضافيّة وليس الاستبداليّة».³⁸ إذ أنّها بطريقة أو بأخرى مكملّة للنقص الذي يعتري اللّغة وبخاصّة في مجال وضع المسمّيات. ويؤكّد "إيكو" هذه الفكرة قائلاً: «فخلق اللّغة استعارات خارج الشّعر وذلك لضرورة تسمية الأشياء».³⁹

والفكرة ذاتها يؤيّدّها "جورج لاكوف" (George Lakoff) (1941م/ السن: 80 سنة) و"مارك جونسون" (Mark Johnson) (1949م/ السن: 72 سنة) من خلال إبراز الدور الرئيس للاستعارة في حياة الإنسان، فهي لا تعمل على نقل الحقائق الكونيّة، ذلك أنّها في ذاتها حقيقة، ومردّد ذلك أنّ جزءاً من تجاربنا وسلوكنا وانفعالنا استعارة من حيث طبيعته.⁴⁰

في جانبٍ موازٍ اقترح البلاغيون الجدد النظرية التفاعلية التي يرجع أصلها إلى "إيفور آرمسترونغ ريتشاردز" (Ivor Armstrong Richards) (1893م/ 1979م) ورحبوا بها من أمثال: "بول ريكور" (Paul Ricoeur) (1913م/ 2005م)، "جورج لايكوف"، "مارك جونسون"، "أمبرتو إيكو" و"ماكس بلاك" (Max Black) (1909م/ 1988م)... والمنطلق هنا هو أنّ الاستعارة ليست تحويلاً أو نقلاً لفظياً لكلماتٍ معيّنة، وإنما كذلك تفاعلٌ بين السياقات المختلفة، واستناداً إلى هذا سيطرت الاستعارة على بلاغة "ريتشاردز" لأنها الوحدة السياقية للدلالة، يوضح ماكس بلاك طبيعة هذا التفاعل قائلاً: «عندما نستعمل استعارة ما، فنحن حيال فكرتين حول أشياء مختلفة وحركية في الآن ذاته، وهما تتركزان على لفظٍ واحدٍ أو عبارةٍ واحدةٍ، بحيث تكون دلالتها نتيجةً لتداخلها».⁴¹

وبتسليط الضوء على البعد السيميائي فإنّ الاستعارة تشكّل ميداناً للعلامة، لأنّ اللغة فيها من الدرجة الثانية التي «لا تشتمل إلا على المجازات فهي تُبدي عكس ما تُخفي، فبقدر ما تكون غامضةً ومتعددةً بقدر ما تكون غنيّةً بالرموز والاستعارات».⁴² ولهذا وجب النظر إليها من منظورٍ سيميائي يغوص في الدلالات العميقة باحثاً فيما خفي منها، فلا نكتفي في دراسة الاستعارة بالمعنى، وإنما نتجاوز لمعنى المعنى.

أما في التداوليات فالحديث عن الاستعارة حديثٌ عن نشاطٍ لغويٍّ مُحَقِّقٌ للتواصل خاضعٌ لظروف إنتاج الخطاب بصفةٍ عامّةٍ، متجاوزٌ فكرةً عدّها آليّةً لغويّةً؛ فـ"جون سيرل" (John Searle) (1932م/ السن: 88 سنة) لا يقبل فكرة ازدواجية المعنى، فالجملة حسبه لا تتضمن سوى معنىً واحداً وهو المعنى الحرفي، أما الاستعاري فهو مرتبطٌ بعملية التلقظ؛ أي بقصد المتكلم، فـ«الطبيعة الاستعارية للمفوض ما تعود إلى قصديّة المؤلف واختياره، وليس إلى أسبابٍ داخلية للبنية الموسوعية».⁴³ وبالتالي فتأويل الاستعارة محكومٌ بقرارٍ صادرٍ عن قصديّة المتكلم.

3.3 تحقيق الاستعارة للانزياح الدلالي:

إنّ النصّ في التّحديد العام متتالية من الجمل والتراكيب المترابطة فيما بينها بعلاقاتٍ سارية وفق نظامٍ لغويٍّ مُتَوَاضِعٍ عليه من قبل الجماعة اللغوية مؤطّرٌ بسياقٍ معيّن، وهذا المفهوم لا يتأتّى له إلا بصياغته في أسلوبٍ معيّن يُقصد إليه من قبل مبدعه، فيكون على دراية بالمعاني الموضوعية للأصل الدلالي وبلاستعارية منها.

وأيّ خرقٍ يُعمد إليه في النظام المتعارف عليه أو في السياق العام الموضوع له يعدّ انزياحاً، فالمبدع الحاذق هو الذي يسخر إمكانات اللغة، ويتلاعب بتراكيبها وقوانينها ممّا يمنح نصّه خصوصيّة ينماز بها عن غيره من النصوص فيحقق باستعماله الاستعارة مُزاحاً بها دلاليّاً وظيفتين جماليّة «فالبعد الجمالي لا يتحقّق إلا عن طريق الانزياح»⁴⁴ وبالتالي فالوظيفة الجمالية لا تتحقّق إلا من خلال المفارقة والإدهاش الناجمين عن الانحراف الأسلوبي وكسر النمطية وخلخلة التشكيل المعيارى لدلالة النصّ اللغوي. ووظيفة المفاجأة؛ وهنا يميل بعض علماء

الأسلوب إلى عدّ الانزياح «حيلةً مقصودةً لجذب انتباه القارئ ومنه فالكثابة الفنيّة تتطلّب من الكاتب أن يفاجئ قارئه من حينٍ لآخر بعبارةٍ تثير انتباهه حتى لا تفتّر حماسه لمتابعة القراءة». ⁴⁵

فالمفاجأة ميزة الاستعارة وكلّما كانت غير متوقّعة كلّما كان وقعها أكبر على المتلقّي؛ وبهذا تكون ظاهرة الانزياح ذات أبعادٍ دلاليّة وإيجائيّة تثير الدهشة والمفاجأة فيصبح حضوره في النصّ قادراً على جعل لغته لغةً متوهجةً مثيرةً. من وظائفه أيضاً أنّه يثير في نفسيّة المتلقّي الغرابة، وهذا ما يوضّحه "الجاحظ" (255هـ) قائلاً: «(...) الشّيء من غير معدنه أغرب، وكلّما كان أغرب كان أبعد في الوهم وكلّما كان أبعد في الوهم كان أطرف، وكلّما كان أطرف كان أعجب وكلّما كان أعجب كان أبعَد». ⁴⁶ فكلّما كان الشّيء غريباً كلما حثّ العقل على البحث والتأويل لإنتاج ما يُشبع الفضول؛ فمألوف القول لا يثير لدى المتلقّي أي إحساس. كما أنّ عمليّة الانزياح تقوم بتمتين صلة المتلقّي بالنصّ الأدبي، فالكلام إذا خرج عن التّمتية أيقظ الإصغاء واستفتح الآذان للاستماع، وهياً المتلقّي لسبر أغوار هذه الانحرافيّة بحثاً عن طاقاتٍ دلاليّة وقيمٍ جماليّة الكامنة فيه، فيصبح هو الآخر مبدعاً. إنّ الانزياح بوصفه تمرّداً على القاعدة اللغويّة يسعى إلى تجاوز الدلالة المعجميّة وتخطّيها لأنّ الشعريّة «لا تنتج عن استخدام الكلمات بأوضاعها القاموسيّة بل تنتج عن طريق الخروج بالكلمات عن طبيعتها الراسخة إلى طبيعةٍ جديدة». ⁴⁷

وبهذا يصير الهدف من توظيف الاستعارة -بعدها انزياحاً دلاليّاً- هو التماس وجهٍ يبدو فيه المعنى أكثر ملاءمةً ويكونُ الكلم أقلّ خضوعاً لسلطان التعريفات المعجميّة، وكذا متحرّراً من قيود المعياريّة التي تحصره وتجمّده، وبذلك تنفجرُ المواقفُ بعيداً عن القوانين اللغويّة، فيكون اختيارُ الكلمات مخالفاً لما اعتادته أذهانُ الناس وعادلاً عنه حتى يُحدث المفاجأة والدهشة المطلوبتين، ويسهم في لفت انتباه المتلقّي ومن ثمّ التأثير فيه.

4. تبيان وظيفة الاستعارة في تحقيق الانزياح الدلالي في حكم نهج البلاغة:

إنّ الاستعارة بعدها الآلية الأساسيّة لتحقيق الانزياح الدلالي تُحيلنا بالضرورة إلى تقصّي المعنى المعجمي للألفاظ المستعارة ومن ثمّ الرّبط بينها من خلال تجاورها من جهة ومن خلال الإمكانات الواردة للمعنى الدلالي لنتخيّر منها الملائم في سياق التّجاور، ومن هنا كان هذا الجانب من الدّراسة تطبيقاً يسلّط الضوء على بعض حكم الإمام علي -كرم الله وجهه- في كتاب "نهج البلاغة"، يركّز على استجلاب المعنى المعجمي الذي يقدّم لنا المعنى الأصل الذي وُضع اللفظ من أجله، ومن ثمّ الانتقال إلى تقصّي المعنى الدلالي المتخفي وراء المعجمي والذي يُبقي منه دلالةً رفيعةً القدر تكون وشاجاً لحمل المعنيين وتناسبهما، وهنا تكمنُ العمليّة التفاعليّة بين المعنيين (أصلي الوضع ومجازي الاستعمال).

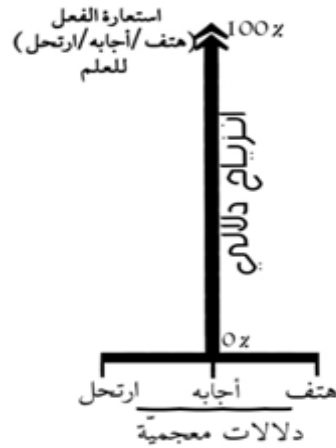
قال الإمام علي -كرم الله وجهه-: «العلم مقرونٌ بالعمل، فمن علمَ عمل، فالعلمُ يهتفُ بالعمل؛ فإن أجابه وإلا ارتحل». ⁴⁸

في الحكمة التي بين أيدينا استعارةٌ لثلاثة ألفاظٍ تُعدّ قرينةً ولازمةً دالةً على المشبه به (الإنسان) المحذوف في العبارة وهي (يهتف/ أجابه/ ارتحل)، فكان لتوظيف الاستعارة أو بمعنى أدق كان الانتقال من معاني هذه الأفعال في أصل وضعها إلى معانٍ ألصقت بمن لا يؤديها حقيقةً (العلم) تحقيقاً لانزياحٍ دلالي هُدَيْتَهُ تشخيص المعنى، وهو انزياحٌ في بعده الدلالي يتركز على حمل صفات المحسن وإلباسها لغير المحسن تقريباً للمعنى وصولاً للتأثير.

وفي هاتِهِ العملية يحدث تفاعلٌ بين المعاني لاشتراكها في خيطٍ رفيعٍ من الدلالة سمح بتكوين الصورة الاستعارية التي أضفت نوعاً من الجمالية والمفاجأة. فالهتف (وهو النداء) استعير وأُسْنِدَ للعلم؛ فهو الهاتِفُ (المُنَادِي) كما أُسْنِدَ من زاوية المفعولية للعمل؛ فهو المهتوف به (المُنَادَى) فتخلّى الفعل (هتف) عن بعض دلالاته المعجمية والتي منها تخصّصه بالإنسان المصدر صوتاً يهتف به، إلى معنى مجرد لا صوت له.

وما يزيد الانزياحية الدلالية تحقّقاً هو استعارة الفعلين (أجابه/ ارتحل) وكأنّ الصورة مشخّصة أمام مرأى العين؛ شخصين يهتف أحدهما للآخر إن لم يجبه ارتحل، فصار العلم والعمل ماثِلان في عالم الحسن بقرينة الفعل. وأراد بالإجابة والارتحال - وهما صورتان متناقضتان - تعلّقهما بالمنفعة الحاصلة من اقتران العلم بالعمل، فالله عزّ وجلّ قد جعل للنفس العاقلة قوتين (علمية/عملية) وكمال هذه النفس باستكمالهما، فلا كمال متحقّق لها بالعلم دون اقترانه بالعمل.

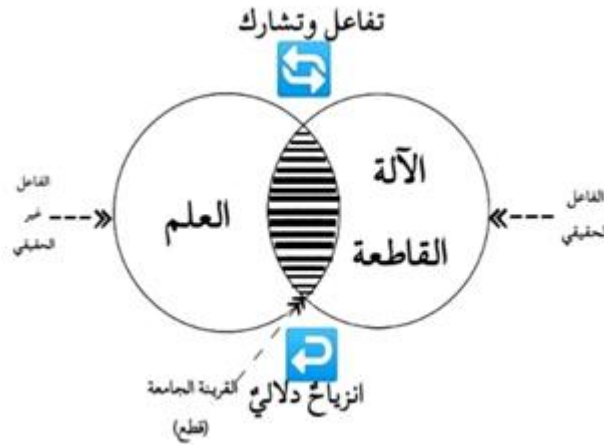
الشكل 1: درجة انزياحية الاستعارة في حكمة «العلم مقرونٌ بالعمل، فمن علمَ عمل، فالعلم يهتفُ بالعمل؛ فإن أجابه وإلا ارتحل»



إنّ ما يميّز الاستعارة عن بقية الانزياحات اقترانها بمفهوم الثقل الذي ينم عن أنّ المعنى الاستعاري يأتي من تجاوز المعنى الأصلي الموضوع إلى آخر مجازي، فهي بالتالي تحقّق انزياحاً عن الاستعمال الشائع والمألوف إلى استعمالٍ يكسر القاعدة المعيارية للمعاني المعجمية يعزّز التشابه المعقود بين المعنيين، ومن هنا كان تأويلُ الاستعارة مرهونٌ بتحديد مدى انزياحيته عن المعنى المتعارف عليه إمساكاً بزمام هذا التشابه.

00 ومن الحكم التي تبرّر لنا هذا المنحى قوله - كرم الله وجهه -: «قطع العلم عذر المتعلّين»⁴⁹

الشكل 2 : الوظيفة التفاعلية للاستعارة في حكمة «قطع العلم عذر المتعللين»



حققت هاته الاستعارة انزياحاً دلالياً من معنى القطع المسند لآلة حادة قاطعة في أصل وضعه (شيء مادي ملموس) إلى استعماله لمعنى مجرّد وهو العلم، وكأنّ هذا العلم آلة قاطعة لأعداء القائلين إنّنا كنّا عن الحق غافلين، وبذا كانت الصّورة تجسّيداً للمعنى في صورة ملموسة مُحسّنة، يجسّد فيها العلم دور الآلة القاطعة كونه فعلاً حجة قاطعة لعذر كل متعلّل إمّا بالجهل تماماً به وإمّا بالغفلة عنه. في منوال تجسّيدي للمعنى ولكن بمنظار تصوّري في نوع من الاستعارة التّذويّة المزاحية دلالياً من أصل المتذوّق (الطّعام) إلى معانٍ أخرى التّذوّق فيها مُسَقَّط على أثرها في النّفس من تحقيقها للذة والألم، وهذا في قول الإمام علي - كرم الله وجهه -: «مرارة الدّنيا حلاوة الآخرة، وحلاوة الدّنيا مرارة الآخرة»⁵⁰

فهنا استعار لفظي القش (حلاوة/مرارة) ل(الدنيا/الآخرة) بما تجلبانه من لذة وألم، وظاهر جلياً أنّ آلام الدّنيا اللّازمة عن ترك لذاتها لعدم الالتذاذ بها طلباً للآخرة شوقاً لها ولشواها، مستلزمةً لحلاوة الآخرة ولذاتها، كما الدّواء مرّاً مذاقه لكنّه مستلزمٌ لحلاوة الشّفاء مسبّب بسببٍ من الشّافي عزّ وجلّ للذة الرّاحة والظّفّر بنعيم الصّحة. ومن جانبٍ معاكس الابتهاج للذات الدّنيا يستلزم الغفلة عن الآخرة وترك العمل لها وذلك مستلزمٌ لعذابها ومُستعقبٌ لشقاوتها كما الحال في ترك التّداوي لمرارة الدّواء.

الشكل 3: الوظيفة التفاعلية للاستعارة في حكمة «مرارة الدّنيا حلاوة الآخرة، وحلاوة الدّنيا مرارة الآخرة»



وبالتنقل في حكم الإمام - كرم الله وجهه - نجد أن الاستعارة واردة ومطروق إليها كونهما البيّة انزياحية تأثر على المتلقي تأثيراً عقلياً من خلال حثّه على الغوص في مكامن الدلالة واستنباط الأصح والأقرب، وتأثيراً وجدانياً من حيث إنّها أداة جمالية يُخَيَّر فيها اللفظ لثقل من معناه الموضوع إلى معنى أحتيج للتعبير به، وما هذا إلا لتواءم حاصل بين المعنيين ولا يدركه إلا مستعمل حاذق للغة فيبني من خلاله، ولا يتذوّقه إلا متلقٍ مثالي يسبر أغوار اللغة... ثم إنّ من كلامه - كرم الله وجهه - ما ينبئ ظاهره على سلبية إن أولّ بغير إرجاع لسياق الحكمة الصحيح، هذا ما تفسرّه بعض الحكم الواردة في ذم المرأة ذمّاً يقتضيه تأويل اللفظة بما دلّت عليه في أصل وضعها المعجمي.

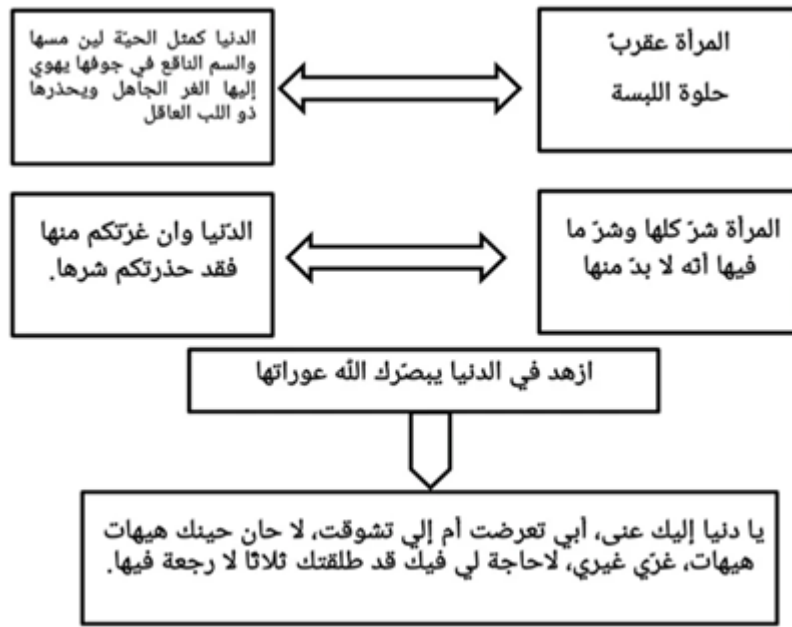
من ذلك قوله: «المرأة عقربٌ حلوة اللبسة»⁵¹ فإنّ تتبّعنا تأويل الحكمة بأنّ دلالة "المرأة" هي تأنيث للفظ إمريّ وهي الأنثى، وغالباً ما تكون هذه اللفظة دالة على الأنثى البالغة وذلك حسب ترتيب غمريّ معين، وكانت دلالة "العقرب" تلك الدابة الصغيرة السامة، تلسع بإبرة في طرف ذنبها، عُقد بينهما تشبيه فكان وجه التشبيه هنا كامناً في أذى يلحق به السّم، فسمّ العقرب مادة في طرف ذنبها تُردي ملسوعها صريعاً يتحمل، فالمرأة لما شبهها الإمام - كرم الله وجهه - بالعقرب دلالة على خطورتها فسمّ المرأة هنا دلالة على الخطورة من ناحية. خطورة سُمّها أين تكمن؟ هل الخطورة في ذاتها وطبيعتها؟ طبعاً لا، إنّما خطورة في العلاقة معها، فأصعب مواجهات الرجل هو مواجهة مع المرأة في جميع النواحي، فعلاقة الرجل بالمرأة الأجنبية علاقة مع العقارب في القبر ثم إن كانت هذه المرأة فتانة سلّبت لبته، وإن كانت قبيحة روّعت قلبه وإن كانت عدوة تغلبه بالبهتان والزور، فأينما ولى وجهه فثمّ الخطورة، فكان وصف المرأة بالعقرب وصفاً أليق للدلالة على ذلك. هذا كان تأويلاً حاصلًا في حالة أنّ لفظة "امرأة" دلّت دلالة قطعية على أنّ المراد بها الأنثى، لكن إن حملنا هذه اللفظة على معنى آخر وهو معنى استعارية الدنيا للمرأة الذي تحقّق لها بفعل الانزياحية الدلالية؛ أي أنّ الإمام - كرم الله وجهه - تمثّل الدنيا بصورة المرأة، لأننا إن انطلقنا من فكرة أنّ الاستعارة غير قائمة على المغايرة بين الطرفين كما في التشبيه، وأنها قائمة على أنّ شيئاً ما هو عين الشيء الآخر (هو-هو) كانت تعبيراته عن الدنيا هي للمرأة والعكس كذلك حاصل.

فإذا ما استقصينا في حكمه ورفعنا تلك التي تحدّث فيها عن المرأة وأخرى عن الدنيا لوجدنا أنّ كلّ المواصفات التي ذُكرت للمرأة ذُكرت للدنيا والعكس، فلما قال إنّ «المرأة عقربٌ حلوة اللبسة»⁵² تواءم وقوله عن الدنيا بأنّها «حيّة لين مسّها، والسّم الناقع في جوفها يهوي إليها الغرّ الجاهل ويحذرهما ذو اللبّ العاقل»⁵³ فتشبيه الدنيا بالحيّة هو عينه تشبيه المرأة بالعقرب، إذ كلاهما دابة سامة ضارة قاتلة فإن أزلنا هذا الجامع في الاستدلال المنطقيّ تبين لنا أنّ المرأة عين الدنيا في تعبيرات الإمام - كرم الله وجهه - وما يؤكّد لنا هذه الانزياحية الدلالية الحاصلة في دلالة الأصل ومجازه قوله تعالى: «المال والبنون زينة الحياة الدنيا» (الكهف: ٤٦) أي أنّ للدنيا زينة تزيّن بها، فكما للمرأة زينتها وهي حلاوة اللبس للدنيا زينة هي المال والبنون، وإنّ تتبّعنا موارد

المال والبنين في القرآن الكريم لوجدنا معظمها يوحى بدلالة الفتنة للمرأة، فكان الترابط والانسجام الدلالي هنا خاصلا وبقوة، خصوصاً أنّ زينة المرأة فتنة.

وهناك موارد أخرى تثبت صدق هذه الدعوى في قول عليّ - كرم الله وجهه -: «الدنيا وان غرتكم منها فقد حذرتكم شرها».⁵⁴ ليأتي في مقام آخر ويؤكد هذا قائلاً: «المرأة شرّ كلّها وشرّ ما فيها أنها لا بدّ منها».⁵⁵ فنسبة الشرّ بمقدار كليّ للمرأة فيه مخالفة لعدل الله في خلقه ولكن إن أولت هذه الحكمه باعتبار أنّ المقصود بالمرأة بمنظار الاستعارية والانزياحية في المعنى لكان أقرب للدلالة المقصودة، فإنّ الحياة الدنيا شرّ وشرّها أنّها لا بدّ منها، أي إنّك مادمت اخترت أن تكون فيها فلا بدّ لك أن تحتازها، ولن تحتازها بنجاح إلا إذا زهدت فيها مصداقاً لقوله - كرم الله وجهه -: «ازهد في الدنيا يبصرك الله عوراتها».⁵⁶ وهنا قضية عكسية فكما كانت المرأة في حكم عين الدنيا فإنّها في أخرى الدنيا عين المرأة، فكأنّ الدنيا هنا امرأة لها عورات فلن تتبين هذه العورات للرجل إلا إذا أخرج حبّها من قلبه يفتتح بصره ليرى الحقيقة. ففي الدنيا عورات كثيرة وعيوب غير يسيرة يكفيها أن وصفها الله عزّ وجلّ بقوله: «وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور» (الحديد: ٢٠) فمن وقف على هذه العيوب واطّلع عليها اجتنب منها، ولكن لما جُبلت النفوس على حبّها من نواح كثيرة يكون حبّها مانعاً من رؤية عيوبها، فإنّ الحبّ المادي غشاوة على البصيرة، ورُبّما على البصر، ومرأة مقلوبة تتصرّف في البصر وتمنع أن يتجلى المحبوب في عين الحبيب كما هو في الواقع والحقيقة فباب الزهد في الدنيا باب تنكشف به هذه النقائص، يزول به المانع من رؤية تلك العيوب، كذا المرأة إن كثرت عيوبها وزال غشاء الحبّ عن قلب الرجل طلقها ورغب عنها، ثمّ إنّ ما زاد الكلام تأكيداً أنّ حديثه - كرم الله وجهه - إن كان حديثاً عن المرأة كان حديثاً عن الدنيا على وجه المجازية والاستعارية والعكس، وفي هذا المقام قال - كرم الله وجهه -: «يا دنيا إليك عني... لا حاجة لي فيك قد طلقتك ثلاثاً».⁵⁷ فالأكياس لما عرفوا أنّ الدنيا دار غدر طلقوها، ولم يكن طلاقهم إيّاها طلاق من يرقب رجعتها، ولكن كلّ من قلّت كيسته وفطنته خطبها بل ونافس فيها. إنّ هذا الكلام في ظاهره يومئ إلى أنّ المراد به المرأة فهي التي تُخطب وتطلق... لكن لما كانت استعارة الإمام - كرم الله وجهه - دالة على عين الشيء بصورة كلية تحقّق انزياح المعنى.

الشكل 4: التعلّق بين حكم الإمام عليّ - كرم الله وجهه - في إطار استعاري



من كُلِّ ما سبق تبين لنا أنَّ حكم الإمام _ كَرَّمَ اللهُ وجهه _ عن المرأة والدُّنيا وإن كان تشبيهاً في ظاهرِ الحكمةِ يمكن تأويله بأنَّه كذلك، إلّا أنَّ بمقارنته ومقارنته مع مواردٍ أخرى من حكمه يتبيّن لنا أنَّها تجاوزت التشبيه إلى أبلغ منه وهي الاستعارة في أرقى صورها إذ التشبيه حاصلٌ في التَّركيب، وفي ما هو أعلى منه حصل بالاستعارة إن تمَّ تقريب معاني الحِكم بعضها ببعضٍ في دلالاتٍ لا تكشفُ عن نفسها إنّما يُكشَفُ عنها من خلال ترابطٍ مفهومي في أعلى مستوَاه، وذلك بفهم الطَّريقة الاستعارية التي تمَّ بها هذا الانزياح الدَّلالي.

5. خاتمة:

لقد توسَّلنا في هذه الدِّراسة إلى وظيفة الاستعارة في تحقيق الانزياح الدَّلالي من خلال حكم نهج البلاغة لا نُجمل الحكم _ وإنَّ الحكمة من حيث هي صنفٌ من الخطابات لها ميزاتٌ أهمُّها القولُ الموجزُ البليغ الذي لا يُبين كنهه إلا بتقصّيه، وهذا ما حقَّقته الاستعارة بوظيفتها الانزياحية، وقد توصَّلنا من خلال هذا العرض الموجز نظرياً وتطبيقياً إلى مجموعة أفكار نُجملها في الآتي:

- إنّ الانزياح بعده خرقاً للنظام الدَّلالي للغة لا يتحقَّق إلا بمجموعةٍ من الآليات تتزعمها الاستعارة بعدها التَّموذج القائم على الاستبدال المعنوي إمَّا تجسيداً أو تشخيصاً وهذا ما يكشف عن خبايا الدَّلالة، فالاستعارة تتملَّص بذلك من سلطان المعيار ولا تخضع لأحادية النَّظرة.
- لقد تجاوزت الاستعارة في المنظور الحديث التَّصور البلاغي التَّقليدي وغدت نظريةً للمعرفة بامتياز.
- إنّ الاستعارة لم تعد مجرد نقلٍ لكلماتٍ معينة، بل أصبحت عمليةً تفاعليةً بين مجموع سياقات أسهمت في بلورتها، وهذه الفكرة جسَّدتها النَّظرية التَّفاعلية للاستعارة.

- نُظِر للاستعارة تداولياً بعدها نشاطاً لغوياً غايته الأسمى تحقيق التواصل، خاضعةً في الأساس لظروف إنتاج الخطاب وبالتالي يبقى تأويلها مرهوناً بالملايسات المحيطة بها وبخاصة قصدية المتكلم.
- بدت الاستعارة ملمحاً بارزاً في حكم ومواعظ الإمام علي بن أبي طالب — كرم الله وجهه — وقد اصطبغت بصبغة تجسدية وأخرى تشخيصية، فأخرجت بالتجسيد المعاني المجردة في قوالب مُحسنة مشكّلةً بذلك صوراً استعارية غايةً في الجمال والتأثير، وألبست بالتشخيص صورةً إنسانيةً لأشياء مُحسنة تنقدح في ذهن المتلقي صورةً متكاملة الأبعاد للمعنى المقصود.
- ركّزنا في بحثنا هذا على إبراز العلاقة القائمة بين المعاني الأصلية (الموضوعة) والمعاني الدلالية الجانب الانزياحي فيها؛ وذلك ببيان العملية التشاركية التفاعلية من جهة، ومن جهة أخرى توضيح انتقال الاستعارة باللغة من درجة الصفرية إلى درجة الشعرية والأدبية.

6. الهوامش

*اللغة استعارية التشكّل؛ يمكن التمثيل لهاته الفكرة بأبجدية اللغة العربية، حيث إنّ الحروف العربية في أصل وضعها الأول مستعارة من الأبجدية الفينيقية، فحرف الباء مثلاً مشتق من الحرف الفينيقي يُقرأ "بيتا" ويعني في اللغة العربية بيت، والذي بدوره تم استعارته من رمز سينائي أولي عبارة عن رسم بيت، وهذا ما يؤكّد استعارية نشأة اللغة انطلاقاً من أبجديتها وصولاً لدلالاتها. (للاطلاع أكثر: محمد حجاج، من أين جاء نطق الحروف العربية؟ كما ينظر: جورج لايكوف ومارك جونسون، الاستعارات التي نخيا بها، ص23).

¹ أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، إتحاد الكتاب العرب، (د. ط)، دمشق/سوريا: 2002م، ص39.

² سورة البقرة، الآية 185.

³ أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج3، ص07.

*التأثيل: هو التأصيل؛ وهو جمع الشئ وتجمعه حتى يصير له أصل يحمل معنى التحري/ والتأثيل هو علم تاريخ الكلمات.

⁴ أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تح: التجار محمد علي، دار الكتب المصرية، ط2، مصر: (د. ت)، ج2، ص308.

⁵ المرجع نفسه، ص442.

⁶ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: شاکر محمود محمد، مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة/مصر: 1992م، ص262.

⁷ محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، دار نوبار للطباعة، ط1، القاهرة/مصر: 1994م، ص276.

⁸ ياسين إبراهيم محمود، النظم والبيان في متشابه القرآن، دار عباد الرحمن المدنية، ط1، (د. ب): 2010م، ص150.

⁹ أحمد محمد ويس، الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية، إتحاد الكتاب العرب، (د. ط)، دمشق/سوريا: 2002م، ص103.

¹⁰ مختار عطية، التقادم والتأخير ومباحث التركيب بين البلاغة والأسلوبية، دار الوفاء، (د. ط)، (د. ب): 2005م، ص106.

¹¹ أحمد محمد ويس، الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية، ص101.

¹² محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص268.

¹³ نور الدين السّد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دار هومة للطباعة والنشر، ط1، الجزائر: (د. ت)، ص159.

¹⁴ ياسين إبراهيم محمود، النظم والبيان في متشابه القرآن، ص150.

¹⁵ موسى سامح رابعة، الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، جامعة الكويت، (د. ط)، الكويت: 2003م، ص55.

¹⁶ قائمي، مرتضى/ يوسف، إسماعيل/ زاده، جواد محمد، أسلوبية الانزياح في سورة الحديد المباركة، مجلة إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)، العدد 24

كانون الأول 2016م، ص46. نقلاً عن: صفوى كورش، از زبان شناسی به ادبیات ج1، تهران: نشر چشمه. (مرجع فارسی).

¹⁷ جون كوهن، بنية اللغة الشعرية، تر: الولي محمد/ العمري محمد، دار توبقال للنشر، ط2، دار البيضاء/المغرب: 1986م، ص205.

¹⁸ جوزيف فندرس، اللغة، تر: الداوخلي عبد الحميد/ القصّاص محمد، مكتبة الأنجلو المصرية، (د. ط)، القاهرة/مصر: 1950م، ص256.

¹⁹ أحمد غالب النوري الحرشة، أسلوبية الانزياح في النص القرآني، (د. ط)، جامعة مؤتة، (د. ب): 2008م، ص38.

- ²⁰ ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص444.
- ²¹ المرجع نفسه، ص263.
- ²² المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ²³ المرجع نفسه، ص332.
- ²⁴ صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، دار الشروق، ط1، القاهرة/ مصر: 1998م، ص213.
- ²⁵ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ²⁶ يوسف أبو العدوس، الأسلوبية الرؤيوية والتطبيق، دار المسيرة للنشر والتوزيع، ط1، عمان/الأردن: 2007م، ص188.
- ²⁷ صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، ص215.
- ²⁸ ميكائيل ريفاتير، معايير تحليل الأسلوب، تر: لحميداني حميد، منشورات دراسات سال، ط1، دار البيضاء/المغرب: 1993م، ص56.
- ²⁹ ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ³⁰ أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج4، ص184.
- ³¹ أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط6، بيروت/لبنان: 1997م، ج4، ص618.
- ³² عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تع: محمود محمد شاكر، دار مدني، (د. ط)، جدة: (د. ت)، ص22.
- ³³ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص431.
- ³⁴ عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص30.
- ³⁵ أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، تع: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت/ لبنان: 1987م، ص174.
- ³⁶ جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة _ المعاني والبيان والبديع، دار الكتب العلمية، ط1 بيروت/ لبنان: 2002م، ص407.
- ³⁷ يوسف السكاكي، مفتاح العلوم، ص33.
- ³⁸ المرجع نفسه، ص264.
- ³⁹ أمبرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، تر: أحمد الصمعي، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت/لبنان: 2005م، ص237.
- ⁴⁰ ينظر: جورج لايفوف، مارك جونسون، الاستعارات التي نحيا بها، تر: عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، ط1، الرباط: 1996م، ص21.
- ⁴¹ إيفور آرمسترونغ ريتشاردز، فلسفة البلاغة، تر: سعيد الغانمي/ ناصر حلاوي، مجلة الابتسامة، (د. ط)، إفريقيا الشرق/ المغرب: 2002م، ص98.
- ⁴² جيرار دولودال/ جويل ريتوري، السيميائيات أو نظرية العلامات (مدخل إلى سيميوطيقا شارل س. بيرس)، تر: عبد الرحمن بوعلي، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، اللاذقية/سوريا: 2004م، ص41.
- ⁴³ أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، تر: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء: 2004م، ص160.
- ⁴⁴ يوسف أبو العدوس، الأسلوبية الرؤيوية والتطبيق، ص185.
- ⁴⁵ المرجع نفسه، ص185.
- ⁴⁶ أبو عثمان بحر بن محبوب الجاحظ، البيان والتبيين، تع: محمد هارون عبد السلام، الناشر مكتبة الغانجي، ط7، القاهرة/مصر: 1998م، ج1 ص89.
- ⁴⁷ حسن ناظم، مفاهيم الشعرية (دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم)، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت/لبنان: 1994م، ص154.
- ⁴⁸ علي ابن أبي طالب، نهج البلاغة، جمع وتأليف: الشريف الرضي، شرح: محمد عبده، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت/ لبنان: 2007م، ص386.
- ⁴⁹ المرجع نفسه، ص376.
- ⁵⁰ المرجع نفسه، ص369.

⁵¹ المرجع نفسه، ص 353.⁵² المرجع نفسه، الصفحة نفسها.⁵³ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.⁵⁴ المرجع نفسه، ص 330.⁵⁵ المرجع نفسه، ص 368.⁵⁶ المرجع نفسه، ص 391.⁵⁷ المرجع نفسه، ص 360.

7. المراجع

• المعاجم العربية:

- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، ط6، دار صادر، بيروت/لبنان: 1997م.
- أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، اتحاد الكتاب العرب، دمشق/سوريا: 2002م.

• الكتب العربية:

- أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تح: النجار محمد علي، ط2، دار الكتب المصرية، مصر: د.ت.
- أبو عثمان بحر بن محبوب الجاحظ، البيان والتبيين، تح: محمد هارون عبد السلام، ط7، مكتبة الغانجي، القاهرة/مصر 1998م.
- أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، تع: نعيم زرزور، ط2، دار الكتب العلمية بيروت/لبنان: 1987م.
- أحمد غالب النوري الخرشنة، أسلوبيّة الانزياح في النصّ القرآني، جامعة مؤتة، د. ب، 2008م.
- أحمد محمد ويس، الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبيّة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق/سوريا: 2002م.
- جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة _ المعاني والبيان والبدعي _ ط1، دار الكتب العلمية، بيروت/لبنان: 2002م.
- صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، ط1، دار الشروق، القاهرة/مصر: 1998م.
- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: شاکر محمود محمد، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة/مصر: 1992م.
- علي ابن أبي طالب، نهج البلاغة، جمع وتأليف: الشريف الرضي، شرح: محمد عبده، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت/لبنان: 2007م.
- محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبيّة، ط1، دار نوبار للطباعة، القاهرة/مصر: 1994م.
- مختار عطية، التقديم والتأخير ومباحث التركيب بين البلاغة والأسلوبيّة، دار الوفاء، د. ب: 2005م.
- موسى سامح رابعة، الأسلوبيّة مفاهيمها وتحليلاتها، جامعة الكويت، الكويت: 2003م.
- نور الدين السّد، الأسلوبيّة وتحليل الخطاب، ط1، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر: د. ت.
- يوسف أبو العدوس، الأسلوبيّة الرّؤية والتّطبيق، ط1، دار المسيرة للنشر والتّوزيع، عمان/الأردن: 2007م.
- الكتب المترجمة
- أمبرتو إيكو، التّأويل بين السّيميائيات والتّفكيكيّة، تر: سعيد بنكراد، ط2، المركز الثقافي العربي، الدّار البيضاء: 2004م.

-
- أمبرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، تر: أحمد الصّمعي، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت/لبنان: 2005م.
 - إيفور آرمسترونغ ريتشاردز، فلسفة البلاغة، تر: سعيد الغانمي/ ناصر حلاوي، مجلة الابتسامة، إفريقيا الشرق/ المغرب 2002م.
 - جورج لايكوف، مارك جونسون، الاستعارات التي نَحيا بها، تر: عبد المجيد جحفة، ط1، دار توبقال للنشر، الرباط 1996م.
 - جوزيف فندرس، اللغة، تر: الداوخلي عبد الحميد/ القصاص محمد، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة/مصر، 1950م.
 - جون كوهن، بنية اللغة الشعرية، تر: الولي محمد/ العمري محمد، ط2، دار توبقال للنشر، دار البيضاء/المغرب، 1986م.
 - جيرار دولودال/ جوويل ريطوري، السيميائيات أو نظرية العلامات (مدخل إلى سيميوطيقا شارل س. بيرس)، تر: عبد الرحمن بوعلي، ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية/سوريا، 2004م.
 - ميكائيل ريفاتير، معايير تحليل الأسلوب، تر: حميداني حميد، ط1، منشورات دراسات سال، دار البيضاء/المغرب 1993م.
- المجالات:
- قائمي مرتضى/ يوسف إسماعيل/ زاده جواد محمد، أسلوبيّة الانزياح في سورة الحديد المباركة، مجلة إضاءات نقدية (فصلية محكمة)، العدد 24، كانون الأول 2016م.